مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (2)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (2) 2015

العامة والحملة الفرنسية على مصر من كتابة ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية للمعلم نقولا الترك

الدكتور صبحي العزام*

(تاريخ الإيداع 25 / 1 / 2015. قبل للنشر في 13 / 4 / 2015)

□ ملخّص □

رغم كثرة ما كُتب عن الحملة الفرنسية من مؤلفات عربية–وغربية، عُرضت فيها دوافع الحملة ومجرياتها وآثارها على مصر خاصةً والمشرق العربي عامةً، إلا أنّ بعض الجوانب فيها تحتاج إلى مزيد من البحث والتقصّي، وكان من الموضوعات التي حظيت باهتمامي، العامة في مصر وموقفها من الحملة الفرنسية، وقد اعتمدت في تقصي هذا الموقف على مصادر إسلامية وغربية وذلك لبيان وجهات النظر المختلفة فيه.

وقد قدّم البحث نبذة عن حياة المؤلف، وهو مؤلف معاصر لأحداث الحملة وشاهد عيان عليها، ثم عرض البحث موقف العامة من الحملة منذ نزولها في بندر الإسكندرية إلى أن وصلت إلى القاهرة، وبعد السيطرة على القاهرة عرض حركة المقاومة التي أبدتها الأقاليم المصرية الأخرى للمحتل الفرنسي، بحيثُ لم تخضع للمحتل بالسهولة التي كان يتوقعها، وقدّم معلومات وافية عن ثورة القاهرة، تلك الثورة التي قامت بها العامة وأذهلت المحتل، بحيث جعلته يعيد سياسته في التعامل مع المجتمع المصري، وبيّن الثورات التي قامت بها العامة في الأقاليم مستغلّةً غياب نابليون في غزو بلاد الشام، وعودته مهزوماً من تلك الأقاليم الشامية، وأوضح المشاعر التي عمت العامة بقدوم الحملة العثمانية لإنقاذ مصر من المحتل، والموقف الذي وقفته العامة إلى جانب القوات العثمانية عند دخولها القاهرة، أو في التصدي للفرنسيين من العودة إلى القاهرة ثانيةً. رغم الحرائق التي أصابت أحياء القاهرة، والموت الذي عصف بكثير من السكان بتلك الأحداث، وأخيراً أوضح الفرح الغامر الذي عمّ الناس بالاتفاق العثماني الفرنسي، والذي تضمن خروج الفرنسيين من مصر وعودة مصر ثانيةً إلى الدولة العلية.

*أستاذ مشارك –قسم التاريخ – كلية العلوم الاجتماعية – جامعة مؤتة– الكرك – الأردن.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (2)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (2) 2015

The Public and the French Crusade on Egypt, from Stating the French possession of Egypt Regions and Sham Area Written by Mr. Niqoula Al-Turk

Dr. Subhi Al- Azzam*

(Received 25 / 1 / 2015. Accepted 13 / 4 / 2015)

□ ABSTRACT □

In spite of the presence of many Arabic and Western books written on the French crusade, showing causes, events and effects on Egyptian people and on the entire Arab nation, there are some aspects that need more research and inspection. One of the studies that attract my attention is the public in Egypt and their stand towards the French crusade. I depended on inspecting this stand from Islamic and western resources to show the different points of view from both sides.

This research is a brief account about the author, he has grown up along with the crusade and Witnessed its events. The research presented the public stand from the crusade since it landed in Alexandria port till it reached Cairo. The research showed the resistant movement of the other Egyptian regions against the French occupiers. The Egyptian regions were not occupied easily as expected by the occupiers. The research presents complete information about Cairo revolution that was taken by the public people, which terrified the occupiers, compelling them to change their policy towards the Egyptians. The research showed the absence of Napoleon while he was attacking Sham area. He returned back defeated from Sham region.

The research showed the feeling the people had when the Ottoman came to save Egypt from the occupiers and the stands of the public supporting Ottoman forces when entered Cairo or in defending French from coming back to Cairo in spite of the fires burning Cairo colonies and the terrifying deaths.

Finally, the research showed the people great happiness to the agreement between the Ottomans and the French which implied the French departure from Egypt and the retuning of Egypt back to Higher State of the Ottomans.

* **Assistant Professor, The College of Social Sciences,*Mutah University , Karak* ,Jordan.**

مقدمة:

أ) التعريف بالمؤلف:

هو المعلّم نقولا بن يوسف بن ناصيف آغا الترك، ولد عام 1763م في دير القمر بلبنان، من أسرةٍ يونانية استوطنت القسطنطينية، واعتنقت الكاثوليكية في أوائل القرن الثامن عشر[1]، وقد هاجرت الأسرة إلى لبنان واستقرّت عند الأمير يوسف الشهابي، وبعد هزيمة الأمير يوسف الشهابي على يد خصمه الأمير بشير الثاني أمير الشوف[2] وذهابه إلى عكا ومقتله على يد الجزار عام (1790م). قام والد المؤلف برعاية أولاد سيّده الأمير يوسف الشهابي، الأمر الذي سبب له نقمة الأمير بشير الثاني عليه وقام بقتله[3]، ومع ذلك وضع نقولا نفسه تحت تصرف الأمير بشير قاتل أبيه، وتقّرب منه وقام بمدحه، ولكن العمل الأخطر الذي قام به خدمه للأمير، هي تلك التي كانت بمصر من عام (1789–1804) حيث كلّفه الأمير بشير إقامة علاقات صداقة مع أعيان مصر وزعمائها، تمهيداً لإقامة تحالف معهم، وقد استطاع نقولا بعد ذهابه إلى مصر في إقامة العديد من العلاقات مع الوجهاء والأعيان وأصحاب المناصب في المجتمع المصري، وقد مهدت هذه العلاقات، لإقامة تحالف قوي بين الأمير بشير الثاني ومحمد علي باشا حاكم مصر، الذي تقلّد السلطة في مصر بعد رحيل الفرنسيين[4] والعمل الآخر الذي قام به خدمةً للأمير بشير الثاني هو تدوين كل ما يتصل بأخبار الحملة الفرنسية على مصر من مقره في القاهرة أولاً ودمياط ثانياً. إذ جمع المعلومات المستفيضة عن الجيش الفرنسي وتحركاته وعدده وعديده والأحداث التي جرت في مصر إبان الاحتلال الفرنسي، والغزو الفاشل الذي قام به نابليون لبلاد الشام وإرسال كل ذلك إلى أميره[5].

وهكذا كان من نتائج إقامته في مصر أمرين هامين:

الأول: إقامة تحالف بين محمد علي باشا حاكم مصر والأمير بشير الثاني حاكم الشوف.

ثانياً: تأليف كتاب عن الحملة الفرنسية، والذي يعتبر المرجع الأساسي للحملة الفرنسية، باعتباره شاهد عيان للأحداث التي جرت في مصر أبان الحملة[6].

ولما عاد نقولا من مصر إلى دير القمر عام (1804)، عاد والتحق بخدمة الأمير بشير الثاني، وأصبح من المقربين إليه، وذوي الحظوة عنده، كما عاد إلى مهنة التدريس مستعيناً بها على صروف الدهر واحتياجات الحياة مع ما كان عنده من ثروة واسعة جمعها أثناء إقامته في مصر[7]، وقد استمرت حياة المؤلف رتيبةً هادئة إلى أن توفي عام (1826م)[8].

العامة والحملة الفرنسية:

بدأت الاستعدادات للحملة الفرنسية في مدينة طولون، المدينة الفرنسية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، التي أصبحت مركزاً لتجمّع الجند الفرنسي الذي وصل قوامه إلى ثلاثين ألف جندي من سلاح المشاة والفرسان والمدفعية أما الأسطول الذي حمل هذه القوات فقد قدر بثلاث عشرة سفينة حربية وسبع عشرة فرقاطة، وعدة سفن متعددة الأغراض، وزوارق حاملة للمدافع إضافةً إلى السفن التجارية، وقد رافق هذه الحملة بالإضافة إلى الجند التجار والقائمين على شؤون السفن والعلماء والفنانيين، والقائمين على خدمة الجيش والضباط[9] وكان من أهداف الحملة الفرنسية السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، وتدمير المصارف الإنجليزية في الهند الشرقية[10]، ناهيك عن طمع نابليون بخيرات مصر[11]، وكانت أولى المحطات التي وصلت إليها الحملة جزيرة مالطة، إذ اضطر المالطيون إلى الاستسلام بعد قتال قصير[12] وبعد الاستسلام أقام بها نابليون حكومة مؤقتة[13]، وبعد التزود بالمؤن والماء، واتخاذ التدابير العسكرية والإدارية، واصلت الحملة مسيرها، وكانت وجهتها مصر، وأولي الموانئ التي وصلت إليها في مصر

ميناء الإسكندرية، والذي ما أن وصلت إليه الحملة وشاهد الناس الكم الهائل من السفن ((أقبلت العمارة العظيمة التي ليس لها عدد))، حتى دخل في نفوس أهل الإسكندرية من العامة خوف عظيم وهمّ جسيم[14]، وبوصول الأسطول الفرنسي إلى ميناء الإسكندرية، بدأت الاستعدادات من قبل المماليك حكام مصر العثمانيين ومعهم العامة في التصدي للغزاة ومواجهة الحصار، إذ استجابت العامة لنداء المماليك في التجنيد لمحاربة الفرنسيين (المناداة في الإسكندرية اليوم يوم المغازاة)[15].

وقبيل عمليات الإنزال أرسل نابليون طائفة من الجند في طلب القنصل الفرنسي المقيم في المدينة وممثلي العامة من أهل الحلّ والعقد في الحضور للأسطول، إلا أنّ ممثلي العامة من أهل الحلّ والعقد رفضوا الطلب الفرنسي، باعتبار أنهم غير مأذون لهم في الذهاب للأسطول، أو إدخال أي شخص غريب لمدينتهم، ما لم تأذن السلطة الموجودة في القاهرة بذلك[16]، ولذلك ذهب القنصل بمفرده إلى الأسطول وقيل ذهب معه بعض أهل الحلّ والعقد، وعندما حضر القنصل عند نابليون أبلغه أن المدينة وقلاعها مستعدة لصدّ كل ما يحاول النزول إليها[17].

وبعد عمليات الإنزال من الأسطول في الليل، قوبلت القوات الفرنسية بالمقاومة من قبل الفرق العسكرية المملوكية، وعدة فصائل من الفلاحين والبدو الذين قام بجمعهم كاشف البحيرة من عدة جهات للدفاع عن المدينة[18]، ورغم نيران المماليك والعامة ووابل الحجارة التي كانت ترشق بها القوات الفرنسية، إلا أنها واصلت تقدمها مدعومة بالمدفعية والقنابل، مما أجبر المدافعين عن المدينة إلى الفرار[19]، ورغم الفرار فقد تواصل إطلاق النار والحجارة من أسطح المنازل وقد أبلى الجميع سواء المماليك أو العامة البلاء الحسن في المقاومة، لكن المقاومة كانت عبثية أمام الجند الفرنسي المدرب وقوة نيرانه، في حين أن سلاح المماليك كان كالتراب لا فائدة فيه، نتيجة عدم الاستعمال له لفترة طويلة، كما أن العامة كانت من الفلاحين والبدو الذي لا عهد لهم بقذائف المدفعية، واعتقال زعماء العامة ورؤسائهم من قبل الفرنسيين أثناء ذهابهم مع القنصل الفرنسي لمقابلة نابليون، إضافةً إلى صياح الصبية والنساء، كلّ ذلك شلّ تفكير المدافعين وولوا هاربين[20]، ومع ذلك تواصل إطلاق النار من القلاع المتواجدة في المدينة رافضة الاستسلام للقوات الغازية[21] وبعد دخول المدينة وانتشار الجيش الفرنسي في شوارعها، طلب نابليون من الجند وقف المعركة وإرسال وفد للمفاوضة وإقناع العامة بالاستسلام، وقد استجابت العامة للعرض الفرنسي، وأرسلت وفداً ممثلاً لها من الأئمة والشيوخ والأعيان لمقابلة نابليون، الذي أحسن استقبالهم وجدد تأكيده على النية الصادقة إذا ما سلمت إليه القلاع والمرافئ[22]، وبعد استتباب الأمن في المدينة اختار نابليون من العامة سبعة أنفار من الأعيان الكبار، وخمسة أنفار من الأهالي وقلدهم زمام الأحكام ولتأكيد سياسته في جذب العامة أذاع منشورا أكّد فيه أحقيّة أهالي مصر في دخول المناصب السامية واكتساب المراتب العالية[23] بعد أن كانت تلك المناصب والمراتب حكراً على المماليك حكام مصر.

وبعد الاستيلاء على الإسكندرية، أُرسلت القوات الفرنسية إلى دمنهور وبندر الرشيد أما بندر رشيد فإن العامة فيه لما بلغهم قدوم الفرنسيين إليهم، أخرجوا إليه علماء وأعيان البلد، الذين سلموا البلد إلى الفرنسيين بالأمان خوفاً من الضرر[24]، أما دمنهور فإن الفرنسيين حين ساروا إليها تعرضوا لمضايقات البدو، الذين قاموا بردم الآبار الواقعة في طرق الفرنسيين، بحيثُ تساقط الكثير من الجند الفرنسي صرعى بسبب العطش، وما أن وصلت القوات الفرنسية دمنهور حتى ظهر البدو بشكل كثيف، واشتبكوا مع القوات الفرنسية باشتباكات عنيفة، سقط فيها كثير من الجند الفرنسي[25]، وعندما بدأت القوات الفرنسية التقدم باتجاه مدينة القاهرة، كان البدو لهم بالمرصاد، إذ كانوا يتبعون الجيش الفرنسي كما تتبع أسماك القرش السفن في البحار، وقد كان البدو أثناء ذلك يقتلون وينهبون كل ما يتخلف أو يتكاسل

من الجند[26] في حين كانت القرى التي يمرّ بها الجيش الفرنسي في طريقه خالية من السكان والماشية، إذ بدت مهجورة تماماً[27].

وعندما وصلت أنباء تقدم الجيش الفرنسي باتجاه القاهرة، سارع مراد بك حاكم مصر من قبل العثمانيين في عقد اجتماع حضرة الأمراء والسناجق والأغوات والعلماء الكبار والصغار وجملة من العامة أرباب الصوت المسموع، وفي الاجتماع تداول الجميع أمر الفرنسيين، ودخولهم مدينة الإسكندرية وغيرها من المدن المصرية الواقعة في شمال القاهرة[28]، وقد اتفق الجميع وبحماس شديد على مواجهة الفرنسيين، والاستعداد للحرب والقتال، وقرر الجميع قبيل التوجه لمواجهة الفرنسيين سجن القنصل والتجار الفرنسيين المتواجدين في القاهرة، خوفاً من الخيانة، فسجن الجميع في قلعة القاهرة، وحين طالب البعض بقتل النصارى، رفض الوزير وشيخ البلد إبراهيم بيك هذا الرأي، باعتبار أن هؤلاء رعية السلطان، بل إن الوزير وشيخ البلد كانا يرسلان كل يوم آغا الانكشارية إلى النصارى لطمأنتهم على أرواحهم وأموالهم، والمناداة في البلد بحفظ الرعية وعدم المعارضة لهم[29]، وقد نجح مراد بك بجمع عشرين ألف من المماليك وجمع غفير من الفلاحين والبدو[30] حتى يقال إنه خرج كل من كان في القاهرة، فيما عدا النساء والأطفال والعجائز، إذ حضر للجهاد ما لا يقع تحت حصر من الفلاحين والبدو وأهل السوق، وهم لا يحملون سوى العصي في أيديهم[31] وقد سار الجميع للقاء الفرنسيين عند إمبابة وعند اللقاء استبسل المماليك والفلاحون والبدو في المقاومة، وأبدى الجميع شجاعة وإقداما خارقين، ولما لم يشأ أحدهم أن يستسلم، فقد قضى الكثير منهم تحت السيف أو الغرق في النيل[32]، ولما وصلت الأنباء بانكسار مراد بيك، هاجت العامة، وقام الجميع للسلاح لمواجهة الفرنسيين، وقبيل التوجه لمواجهة الفرنسيين، صعد العلماء والعامة إلى القلعة السلطانية، وإحضار البيرق النبوي، باحتفال جسيم وضجيج عظيم، وقد أتوا به إلى بولاق وهم يموجون كالبحر، في حين قام أهالي الأقاليم المجاورة بالصعود إلى المنابر وفتح المصاحف، والدعاء إلى الله بالوقوف إلى جانبهم في وجه الغزاة[33]، وأثناء اللقاء جاءت جحافل البدو من كل صوب، تقدم العون في مواجهة الفرنسيين[34]، ولكن الجميع هزم أمام القوات الفرنسية، وترجع المصادر أسباب ذلك إلى قيام الأمراء قبيل اللقاء في نقل أموالهم وكافة أمتعتهم، الأمر الذي كان له الأثر السلبي على نفوس العامة، إذ ساورهم الخوف والفزع، كما أن الأحوال في القاهرة قد ساءت نتيجة إغلاق الأسواق، وتوقف البيع والشراء، وغلاء الأسعار، مع توقف وصول المواد الغذائية من الجهات المجاورة، لهذا تعالت أصوات العامة من الجوع وضيق الحال[35]، أما الأرياف فقد قام الناس فيها بقتل بعضهم البعض، ونهب بعضهم البعض، وكذلك الحال في البادية، وبذلك ازداد الكرب وتعاظم البلاء[36] وقد استغل تلك الحال رعاع العامة، وقاموا بمهاجمة التجار الفرنسيين في القاهرة وكذلك النصارى، لولا تدخّل والي مصر والعقلاء من الأمراء، الذين حاولوا تهدئة العامة واحتواء غضبهم[37]، وزاد السوء سريان شائعات في المدينة، تفيد أن الفرنسيين بعد الاستيلاء على المدينة، سوف يقومون بقتل ما تبقى من أهلها ونهب أموالهم، وإحراق المدينة وتدميرها، ولهذا هاج الأهالي شيباً وشباباً ونساء وأطفالاً بالصياح والعويل والنزول إلى الشوارع والطرقات يطلبون النجاة، وعمل كل من كان له دابة أياً كان جنسها على إركاب زوجته وأولاده وتحميلها قدر طاقتها من المتاع والخروج من المدينة[38]، وبذلك نزح الناس من القاهرة وباتت أبواب دورها مشرعةعلى مصراعيها، فاستغل تلك الحال العاطلون عن العمل والأراذل والأوباش من العامة وقاموا بأعمال النهب[39]، وإزاء تلك الحال اجتمع القاضي والأعيان وتدارسوا الحال، فاتفق الجميع على التسليم بعد أن ولت الحكام واضمحلت الحال، لأن التسليم أصلح للحال وأحقن للدماء[40]، وقد اتفق الجميع على التوجه لطلب الأمان، واصطحاب القنصل الفرنسي والتجار الفرنسيين المحتجزين في قلعة القاهرة معهم، وأثناء مقابلة الجنرال دبوي رحّب دبوي بالوفد المفاوض، وأجاب إلى طلبهم في منح الأمان، مقابل إرسال المعادي

والسفن لعبور الجيش الفرنسي نهر النيل باتجاه القاهرة، وما إن عاد الوفد المفاوض إلى الأعيان والعلماء، وأخبر بالطلب الفرنسي، حتى أمرت الأعيان بإرسال السفن والمعادي إلى بر إمبابة، وعندما وصل الجيش الفرنسي إلى بولاق، وجد العلماء والأعيان بانتظاره، فسار الجميع أمامه وهم يحملون المشاعل والمنادي ينادي أمامهم الأمان على الرعية والأعيان[41].

وفي اليوم التالي عندما جاء نابليون إلى القاهرة، خرج العلماء والأعيان مسلمين ونصارى لاستقباله والترحيب به[42] ليس حباً في الفرنسيين ولكن لإدراكهم أن الدولة الحالية هي الدولة الفرنسية وليس دولة المماليك أو العثمانيين، وتصف المصادر ممارسات الجند الفرنسي أثناء الدخول، إذا سكن الجند البيوت الشاغرة التي هجرها أهلها، وأسروا غلمان وجواري وزوجات الأمراء المماليك وما أطلقت النساء والجواري من الأسر إلا بشفاعة المشايخ والأعيان ،أما باقي نساء الأمراء فقد حصلن على الأمان مقابل مبالغ مالية دفعت إلى الفرنسيين، كما طالب الفرنسيون الأهالي بالجياد والحمير والبغال والمواشي، والدخول إلى الأسواق وفتح الدكاكين والوكالات ونهب ما بها من أموال بحجة البحث عن السلاح، وفرض سلفة مالية على التجار المسلمين والنصارى والقبط والأروام والشوام، وحين عجز هؤلاء عن دفعها، تدخل المشايخ والأعيان، فخففت السلفة إلى النصف[43] وألزم نابليون أهالي القاهرة بوضع النيشان الفرنسي على صدورهم وكل من يدخل القاهرة ولا يحمله يستحق العقاب[44]، كما شكل نابليون في القاهرة ديوانيين الأول ديوان خصوصي من العلماء والتجار والمشايخ وأقام إلى جوارهم مترجماً فرنسياً والثاني من التجار وإلى جواره مترجم فرنسي ليكون ديوان البحر[45].

كما قام نابليون بتقسيم القاهرة إلى خطوط، وجعل على كل خط حاكماً فرنسياً لغرض الأمن والنظام، وبذلك انقطع اللصوص والخطافون والسراقون[46]، وقد قام حكام الخطوط بإلزام الرعايا بكنس الطرقات والشوارع ورشها بالماء لأجل النظافة، وإجبار صاحب كل بيت أو دكان أو وكالة بإشعال القناديل على باب البيت أو الدكان أو الوكالة[47] وإنشاء إسبتار في القصر العيني للمرضى والمجروحين[48] ولجذب العامة ادعى نابليون الإسلام والتحالف مع الدولة العثمانية، ومشاركة العامة في احتفالاتها، إذ أقام احتفالا بفيضان نهر النيل، واحتفالا بعيد المولد النبوي الشريف[49] ولكن تلك السياسات ما كانت لتنطلي على العامة، بدليل أنه حين غرس نابليون عموداً في بركة اليوزبكية وقال هذه شجرة الحرية رد أهل القاهرة على ذلك بأنه إشارة إلى الخازوق الذي أصابهم، باستيلاء الفرنسيين على بلادهم[50]، وباستقرار الأحوال في القاهرة، اتجهت السلطة الفرنسية إلى فرض سيطرتها على ما تبقى من أقاليم مصر، التي اتخذها الأمراء المماليك مركزاً لهم لتحريض الفلاحين والبدو في العصيان على الحكم الفرنسي ومقاومته[51]، وكان أشهر المحرضين مراد بك، وإبراهيم بك الذين استقروا في الأقاليم المصرية، والجزار والأمراء المماليك الذين ذهبوا إلى بلاد الشام، وذلك بإرسال المناشير إلى الأقاليم المصرية لاستنهاضها على الفرنسيين، فلقيت دعوتهم الاستجابة من العامة، وكانت أولى الأقاليم التي استجابت إقليم المنصورة، إذ بدا الأهالي يتشاورون على قتل الجند الفرنسي الموجودين في مدينتهم، وجرى الاتفاق على يوم الخميس وهو اليوم الذي يقام فيه سوق للبيع والشراء، وقد شجعهم على عزمهم بُعد مدينتهم عن القاهرة، وبرها المتسع وعربها الكثر، وعندما جاء يوم الخميس كبس الأهالي الجند الفرنسي، فهرب الجند إلى النيل، إلا أن المراكب لم تساعدهم على السيّر بها فالتجأ هؤلاء الجند إلى البرّية طلباً للقاهرة، وما زال الناس يطاردونهم في البرّية حتى قتل الجند الفرنسي بأجمعهم[52]، وقد جاء رد نابليون سريعاً على حادثة المنصورة، إذ أرسل الجنرال دوكا ومعه ثلاثة آلاف جندي لحرق البلد وقتل من فيها ، لكن الأهالي كانوا أسرع في الهرب من المدينة، حتى لم يبقَ فيها إلا القليل حين جاء الجنرال دوكا، وما تبقى من الأهالي سارعوا بالخروج إلى الجنرال دوكا والاعتذار منه،

وأن العمل كان من فعل الفلاحين والبدو، فقبل عذرهم مقابل أربعة آلاف كيس تقدم إليه[53] ورداً على حادثة المنصورة أصدر نابليون أمراً برفع العلم الفرنسي على المآذن في كل الأقاليم، وكل إقليم لا يرفع العلم يحرق[54] أما مدينة دمياط فقد أرسل إليها نابليون الجنرال فيال، الذي ما إن وصل المدينة، حتى أوجد ترتيبات تضمن خضوع المدينة للحكم الفرنسي، وذلك بتكليف نفر من التجار لشغل الوظائف التي كانت موجودة في المدينة إبان الحكم العثماني كآغا الإنكشارية ووالي البلد والمحتسب وغيرها من الوظائف، كما لجأ إلى تقريب الشيوخ ومسموعي الكلمة عند الناس.

إذ أحضر شيخ قرية الشعرا القريبة من دمياط وألبسه فروا وقلّده سيفاً وأحضر شيخ إقليم المنزلة المعروف بحسن الطوبال وقلّده سيفاً مذهباً، لكن هذا الشيخ حسن الطوبال كان يُكنّ الكراهية للحكم الفرنسي، بحيثُ أنه ما أن وصلت إليه كتابات أحمد باشا الجزار وإبراهيم بك لاستنهاض الأهالي على الحكم الفرنسي، حتى بدأ بعقد اجتماع ضمّ أهالي دمياط وأهالي القرى المجاورة، والاتفاق على كبس مساكن الفرنسيين ليلاً ، وقد قام الجميع بمهاجمة تلك المساكن بحماس شديد ((اليوم يوم المغازاة من هؤلاء الكفار، اليوم ننتصر للدين ونقتل هؤلاء الملاعين))، لكن الفرنسيين استيقظوا على ضجيج الناس، وتمكنوا بما يملكون من قوّة من دحر المهاجمين[55]، وعندما وصلت الأنباء إلى قرى دمياط بكبس المسلمين مساكن الفرنسيين، قام أهالي قرية العزبة بالهجوم على القلعة وقتل من فيها من الفرنسيين، أو من جاء من الفرنسيين عن طريق المراكب، لكن هؤلاء ما إن وصلت إليهم الأنباء بهزيمة المسلمين سارعوا بالخروج من القرية ومعهم أموالهم وأولادهم والانحدار إلى عكا ولهذا لما وصل الجنرال فيال القرية وجدها خالية، فقام بإحراقها والرجوع إلى دمياط[56].

وفوجئ برجوعه إلى دمياط باجتماع أهالي قرية الشعرا ثانيةً وحين عزم على المسير إليهم، اعترض النصارى عليه خوفاً على أنفسهم، ولهذا لم يسر إلى القرية إلا بعد أن وصلت إليه التعزيزات من الجنرال دوكا حاكم المنصورة، وحين وصل الجنرال فيال إلى القرية وجدها خالية فأحرق البلد وقتل من وجد من السكان وعاد إلى دمياط[57] وبعودته اتفق مع الجنرال دوكا للاستيلاءعلى الجيزة والمنزلة، ولذلك سار دوكا بقواته إلى إقليم المنزلة، وأثناء مسيره اعترضته القبائل البدوية في مكان يعرف بمحلة الجملة، وقد شتت شملهم وأحرق المحلة، وعندما وصل إلى المنزلة، سارع الأهالي بتقديم الطاعة والولاء له مقابل الأمان فوافق على عرضهم، وأقام عليهم شيخاً أخ الشيخ حسن طوبال، كما ضبط القوارب التي تسير من دمياط إلى نواحي إقليم المنزلة، وبذلك ضبط الإقليم ومن ثم عاد إلى المنصورة وفي طريقه حارب القبائل البدوية التي كانت تقف في طريقه، وتقصد حربه وبذلك أصبح إقليم المنزلة وبر دمياط طائعاً إلى الفرنسيين، وإن كانت ضمائر سكانه تحمل العداوة لهم[58]، أما إقليم القليوبية، فقد كان نابليون قد قلّد عليه الجنرال مورا، وكان هذا الإقليم أصعب الأقاليم على الفرنسيين بسبب شدة المقاومة، لكثرة القبائل البدوية فيه، وشجاعة أهله وكثرة مراسها على الحروب، وبراريه الواسعة ووديانه الشاسعة ولذلك لم يخضع هذا الإقليم للفرنسيين إلا بعد حروب شديدة مع السكان، أحرق فيها بلدانا كثيرة وأهلك فيها قبائل بدوية كثيرة إلى أن دان الإقليم بالطاعة[59].

أما الجنرال لانس فقد تقلّد حكم إقليم المنوفية والجهات الغربية وقد استطاع لانس الاستيلاء على المدينة دون أي مقاومة تّذكر، فقام بتفريق عسكره على بلدانها، وبذلك يعتبر إقليم المنوفية أهون الأقاليم، إذ لم يحتج القائد الفرنسي إلا القليل من الحرب للاستيلاء على الإقليم، وسبب ذلك أن أهالي مصر قد هابت قوة الفرنسيين، بعد أن انقطع أملهم في الإمداد من الدولة العثمانية[60]، أما الجنرال ديزيه فقد قلّد حكم الصعيد فسار إليه ومعه أربعة آلاف جندي، وقد كان إقليم الصعيد أكثر الأقاليم صعوبةً على الفرنسيين، وسبب ذلك أن مراد بك والأمراء المماليك اتخذوا من الصعيد مركزاً لهم لمقاومة الفرنسيين، وقد استطاع مراد بك جمع عشرين ألف مقاتل من الفلاحين والبدو، ووقف إلى جانبه الكثير من

الأمراء المماليك الذين اتفقوا على ترك الأحقاد القديمة في سبيل مواجهة الفرنسيين، وعند لقاء الفرنسيين لمراد بك، حمل الفلاحين والبدو والأمراء المماليك كالأسود على الفرنسيين، لكن شجاعة ديزيه وثباته شتت شمل تلك الجماهير وكسرتهم. وبعد انتصاره سار إلى المدينة فحصن قلاعها وأبراجها ومن ثم سار وراء مراد بك مرحلة بعد مرحلة إلى أن جرى اللقاء ثانيةً في مكان يقال له: اللاهون، وقد كانت الوقعة من الوقائع العظيمة لكثرة الجموع التي كانت مع مراد بك، ومع ذلك تمكّن ديزيه من هزيمة مراد بك ثانيةً، وقد ظل ديزيه يقاتل في الصعيد حتى أطاعه الشيخ والولد وهابته الأسياد والعبيد[61]، لكن حركة المقاومة عادت ثانيةً إلى الصعيد مع قدوم محمد الجيلاني ومعه الجم الغفير من أهل الحجاز ومعهم بدو الصعيد، ورغم كثرة أعدادهم إلا أن ديزيه تمكن من هزيمتهم وتشتيت شملهم[62]، ورغم تجمع تلك الجموع المنهزمة ثانيةً ولقائها الفرنسيين، إلا أن ديزيه تمكن من هزيمتهم وبهزيمتهم راق الصعيد عن محاربة الفرنسيين[63].

وكما كانت هناك حركة مقاومة في الأقاليم، فقد ظهرت حركة المقاومة ثانيةً في القاهرة كتعبير عن السخط على الحكم الفرنسي، وكان من أسباب هذه الثورة في القاهرة إدراك الناس بعد مرور ثلاثة أشهر على الحكم الفرنسي، أن الفرنسيين تملكوا مصر دون رغبة من السلطان العثماني وأن ادعاء نابليون في ذلك كان خدعة[64]، إضافةً إلى المكاتبات التي وصلت القاهرة والأقاليم المصرية الأخرى من الأشراف والأمراء يدعون فيها العامة إلى الثورة على الحكم الفرنسي[65] وممارسات الفرنسيين اتجاه العامة إذ كانوا يجبرون النساء والبنات المسلمات على الخروج مكشوفات الوجوه، وانتشار الخمر وبيعه إلى العسكر الفرنسي، وهدم الجوامع والمنارات بحجة توسعة الطرق لعربات الفرنسيين، واتجاه نابليون إلى إنشاء القلاع المتعددة حول القاهرة[66] وقيام الفرنسيين بإيجاد قانون جديد حول البيع والشراء والمعاملات وقسمة المواريث والزكاة وسائر الأمور الشرعية، وإيجاد طريقة جديدة لإدارة الأراضي والعقارات والبيوت والخانات والدكاكين والطواحين والوكالات والأربطة ومطالبة الناس إحضار الحجج التي تثبت ملكيتهم لتلك الأملاك[67]، وفرض ضرائب على الدور والعقارات والدكاكين والخانات والأربطة حتى الأضرحة والمقابر، وقد تراوحت تلك الضرائب بين أربعين ريالاً وريالين تؤدى كلّ شهر[68]، ونتيجةً لتلك الأسباب خرج الناس خروجاً عاماً دون أن يتفكروا أنهم في قبضة الفرنسيين الذين يملكون المدافع والعتاد الحربي[69]، وتشير الرواية أن الذي تزعّم الثورة السيّد بدر الذي خرج وبصحبته أشراف الحسينية، وثلة عظيمة من المغاربة، ومعهم خلق عظيم من العامة[70]، وقد تجمع هذا الحشد في الجامع الأزهر، وأرسلوا من ينادي في شوارع المدينة بالخروج إلى الجامع الأزهر (ينادي في الجمهور كل من كان موحدا يأتي الجامع الأزهر لأن اليوم يوم المغازاة بالكفار لنزيل عنا هذا العار)[71]. وقد سارعت العامة إلى تلبية النداء، وإقفال الحوانيت والوكالات، والاتجاه إلى الجامع الأزهر[72] وحين وصلت الأنباء دبوي بثورة أهل القاهرة من الشيخ إلى الولد، ظن أن السبب مالي، لذلك سارع ومعه ستمائة نفر من الفرنسيين، دون أن يدرك أن العلة ليست المال، وإنما هناك الكثير من الأسباب وراء حقد العامة على الحكم الفرنسي، وتشير الرواية أن دبوي اتجه إلى بيت الشرقاوي لمعرفة الأسباب، وحين لم يجده اتجه إلى بيت القاضي، وبينما هو يسير وسط الزحام، بادر إليه أحد الأتراك وضربه بخشبة على خاصرته، فأسقطته عن جواده ولم يلبث أن مات[73] وكانت العامة تسير في شوارع القاهرة وهي تهتف: (نصر الله دين الإسلام، ولعن الله الكفرة واللئام)[74]، وفي هذا الأثناء كانت العساكر الفرنسية متفرقة في المدينة، ولما كانت لا تعرف العربية، كانوا لا يدركون ما يدور حولهم، وعندئذ قامت العامة بمهاجمتهم من جميع النواحي، وقتل من وجدوه أمامهم من الفرنسيين، وبذلك فتح المصريون نيران حقدهم على الفرنسيين أينما وجدوا[75] وما أن وصلت الأنباء نابليون وكان في الجيزة، حتى سارع بالعودة إلى القاهرة، وعند وصوله إلى القاهرة، أرسل إلى المشايخ، يسأل عما حدث، فلم

يرجع إليه بجواب[76] ولهذا سارع بتفريق العسكر والقادة حول القاهرة، والقيام بضرب الأحياء التي يتجمهر فيها العامة بالمدافع والقنابل من القلعة، وعندئذ سارعت العامة ببناء المتاريس في الأحياء كحي باب النصر والنحاسين وخان الخليل وخط الأزهر والغورية والفحامين وخط المغاربة[77]، ورغم قوة المدفعية إلا أن الفرنسيين داخلهم خوف عظيم لكثرة تجمهر العامة في شوارع القاهرة[78]، وبعد الضرب بالمدفعية لمدة ثلاثة أيام تمكن الفرنسيين من الاستيلاء على الجامع الأزهر، الذي كان مركز انطلاق الثورة، وقام الفرنسيون بسلب ما فيه من الودائع والذخائر، وواصل الفرنسيون تقدمهم والاستيلاء على المكان بعد المكان، إلى أن ملكوا أكثر المدينة، في حين اختفت العامة في منازلها[79] وعندئذٍ تدخل العلماء بالمسير إلى نابليون وطلب الأمان وسحب العساكر من الجامع الأزهر، بحجة أن الثورة كانت من فعل الأوباش من العامة، ولم يستجب نابليون لطلبهم إلا حين جاء الشيخ محمد الجوهري الذي أعجب نابليون بخطابه واستجاب لطلبه بإخراج العسكر من الجامع الأزهر ومنح الأمان لأهل المدينة من العامة[80].

وبعد حركات المقاومة من العامة في الأقاليم والقاهرة، استكان أهل مصر، وكلّ أهلها عن حرب الفرنسيين، لما عاينوا من شدّة الفرنسيين وقوة مراسهم في الحروب، إضافة إلى السياسة الفرنسية في جذب العامة إلى حكمهم بعدالتهم، وعدم ميلهم إلى المشاكلة، مع حسن السياسة وعدم الخيانة، ورفع الظلم عن الفلاحين وضبط عسكرهم وتواضع كبرائهم، وصدق لهجتهم وإطلاقهم للحرية، وتفانيهم في تنظيم البلاد وحرصهم الغريب على راحة العباد مع قطعهم لآثار اللصوص والنهابين والخطافين[81] وكل ذلك لم يجده المصريون عند المماليك وأسيادهم العثمانيين.

وفي هذا الأثناء وكان ذلك عام (1799م) عزم نابليون على غزو بلاد الشام، ولكنّه قبل خروجه جمع العلماء والأعيان وممثلي العامة داعياً إياهم في السهر على مصالح الرعايا، وفي الوقت ذاته حذر الجميع من أي حركة ضد العسكر الفرنسي، وإذا ما ظهرت فقد كلف القائمقام وشيخ البلد وحاكم القلعة بهدم البلد بالمدافع والقنابل وقتل الناس بحدّ السيف[82]، ولم يكتف بذلك بل أذاع منشوراً على أهل الأرياف والفلاحين مطالباً إياهم بالتزام الأدب واجتناب الكذب، متوعداً إياهم إذا ما حصل أدنى خلل أو مخالفة أثناء غيابه بالويل والثبور[83].

ورغم تحذير نابليون، إلا أن العامة وجدت في غياب نابليون فرصة للخلاص من الحكم الفرنسي، لهذا ظهرت الثورات المتعددة، وبدت تلك الثورات كأنها سلسلة هجوم شامل ضد الفرنسيين، وقد بدأت العاصفة ضد الفرنسيين في مصر العليا، بتحريض من عملاء الإنجليز والمماليك، الذين أخذوا في توزيع الفرمانات المزعومة من الباب العالي، ذاكرين فيها أن الفرنسيين قدموا مصر من دون رغبة السلطان العثماني[84].

وقد اندلعت أولى الثورات في بني سويف والشرقية والبحيرة، وأخمدت تلك الحركات بفضل حزم القوات الفرنسية وبأس قادتها[85] وثارت قرية بردين في الشرقية، وكان الرد الفرنسي إحراق القرية وقتل جميع سكانها[86]، وثارت البحيرة ثانيةً بعد قدوم رجل من إفريقيا يدّعي أنّه المهدي المنتظر، لكن حركته قضي عليها[87]، وثارت دمنهور إلا أن الجنرال لانوس قضى على الثورة بقتل السكان وإحراق المدينة بحيثُ لم يبق منها سوى كومة رماد[88]، وثارت قرية كفرفورينجة، فقام لانوس بقتل الكثير وإحراق القرية[89] وحين ثارت إحدى قرى المقاطعة الشرقية قام دورانتون بإحراقها[90] وحين تسربت الأنباء بهزيمة نابليون في بلاد الشام دعا أهالي المقاطعة الشرقية البدو إلى الثورة والالتحاق بإبراهيم بك[91]، وفي مصر السفلى قام المماليك بتحريض الفلاحين والبدو على الثورة، إلا أنّ الجنرال دستريه هزم تلك الجموع من الفلاحين والبدو[92]، هذه الحركات التي قام بها العامة في الأقاليم كلفت الفرنسيين الخسائر البشرية الكبيرة إضافةً إلى الخسائر الفردية التي كان يقوم بها الأفراد ضد الفرنسيين إذ كان الأفراد يأخذون الجند الفرنسي إلى منازلهم بالأمان ومن ثم يقومون بقتلهم وإخفائهم في الآبار[93].

ورغم عودة نابليون من بلاد الشام، والاستقبال العظيم الذي حظي به من العلماء والأغوات والتجار والأوجاقات وأرباب الأقلام وأتباع الفرق[94] إلا أن عودته لم تضع حداً لحركات العامة المقاومة للوجود الفرنسي، إذ اتجه ديزه إلى مصر العليا لمطاردة مراد بك، وقد أبعد المماليك وشتت جموع البدو عند الشبوبية[95]، ثم اتجه ديزه إلى أسيوط وفي طريقه وصل إليه نبأ وجود بدو بني عدي على بعد ستة فراسخ من ظاهر أسيوط، وما أن سار إليهم حتى اختفى البدو[96]، وحين علم ديزه بوجود مراد بك في سدمنت ومعه ثلاثة آلاف مملوك وثمانية عشر ألفا من البدو سار إليهم وقد جرت معركة عظيمة بين الطرفين استخدمت فيها كل الأسلحة وكان النصر حليف الفرنسيين[97]، وبعد تلك المعركة اتجه ديزه إلى الفيوم لجباية الضرائب والحصول على الخيول، ومن ثم مواصلة السير إلى القرى المتمردة التي كان مراد بك قد حرضها على الثورة بواسطة كشافة، وذلك بعدم دفع الضرائب للغزاة الفرنسيين، وقد نجح ديزه في إخضاع تلك القرى باستثناء قرية الدبابنة التي نهبها وأحرقها[98]. وقد اغتنم مراد بك وجود ديزه في الفيوم، وقام بنشر البكوات والكشاف في شمال المنطقة ووسطها لتحريض البدو والفلاحين ضد الفرنسيين، وقد لقيت دعوته الاستجابة، إذ هاج الجمع الغفير من السكان مع مراد بك وكانوا من الفلاحين والبدو، وقاموا بمهاجمة الفرنسيين من جميع الجهات، إلا أنّ مهارة الفرنسيين في الحرب وغزارة نيرانهم، دفعت الجموع إلى الهرب بعد مجزرة بالغة الفظاعة ارتكبت بحق الفلاحين والبدو[99]، وقد أصبح مراد بك المحرك للسكان من الفلاحين والبدو ضد الفرنسيين، لذلك قام نابليون بتزويد ديزه بفرقة مساعدة وحين تحرك ديزه إلى أشمونين ودخل أسيوط، تحرك مراد بك إلى بني سويف ومن ثم صعد إلى أعالي الصعيد لحشد مزيد من الأتباع، أرسل مراد بك الرسائل إلى أهل جدة وينبع في الحجاز، وأهل النوبة في السودان، طالباً المساعدة في مقاومة الغزاة، كما نشر الدعاة في أرجاء البلاد لتحريض السكان والالتحاق به، وبذلك جمع مراد بك أعداد كبيرة من الناس، وعلى مقربةٍ من السواقي جرى اللقاء مع الفرنسيين، وفيها هزم مراد بك وأتباعه ورغم الهزيمة، أعاد مراد بك تجميع الأنصار ثانيةً على مقربةٍ من أسيوط، وكانت تلك الجموع من البدو والفلاحين من المنيا وبني سويف وهوارة، إضافةً إلى الجموع القادمة من ينبع والنوبة، وأثناء اللقاء مع ديزه عند سمنهود هزم مراد بك، ودخل ديزه سمنهود[100].

كما جرت معركة قرب جرجا قتل فيها الكثير من عرب ينبع والفلاحين[101] وظهر مراد بك وحسن بك ومعهم العديد من النوبيين والفلاحين قريبا من قرية أسنا، لكن هذا الجمع لم يصمد أمام الفرنسيين، فانهزم الجميع باتجاه أرمنت التي جرت بها معركة بين حسن بك وبليارد[102] كما جرت معركة أخرى قريبه من أبنود تمكن فيها بليارد من اقتحام القرية والاستيلاء على المسجد وجميع البيوت التي احتمى فيها المسلمين ومن شدة المعركة تحولت القرية إلى أنقاض، وامتلأت الطرقات بالموتى[103]، وجرت معركة كبيرة بين عرب ينبع وكثير من الفلاحين والمماليك والبدو وبين موران عند قرية برديس، وقد نجح موران في إرغام الجمع على التراجع بعد أن قتل العشرات[104]، وقام موران بمتابعة مسيره وقتل كل من دخل جرجا[105]، ووصل الجنرال لاسال إلى جيمي التي اتخذها عرب ينبع مقراً لهم، وقد نجح لاسال في اختراق القرية وقتل الكثير من عرب ينبع والبدو والفلاحين[106]، ووصل دافوست إلى قرية بني عدي التي تجمع فيها المماليك وعرب ينبع وجماعات من دارفور والفلاحين، وقد انتصر دافوست وحوّل القرية إلى أنقاض من الرماد بعد إحراقها[107]، ولما كان بدو جيمي والبقتوش يهددون المنيا بمؤازرة الفلاحين من القرى المجاورة فقد تصدى لهم ديتري الذي أفلح في صد الهجوم[108].

وبقي المصريون على عدائهم للفرنسيين، ينتظرون زوال الحكم الفرنسي عن ديارهم، ولذلك لما وصلت الأنباء بورود الأسطول العثماني ثغر الإسكندرية عام (1214هـ/1799م)، وقام بتوزيع منشورات على الفلاحين والبدو وأهل

تلك البلاد بتحريضهم على الحكم الفرنسي ابتهج الناس بمجيء ذلك العسكر العثماني[109]، وحين وصلت الأنباء بهزيمة القوات العثمانية، خابت آمال الناس، وحزنوا حزناً عظيماً إذ كان الأمل لديهم بتملك العثمانيين لمصر وطرد الفرنسيين منها[110]، وقد أدرك نابليون بفراسته الشعور الذي يسيطر على المصريين، وقد ظهر ذلك عندما أتى إليه العلماء والأعيان وأرباب الديوان لتهنئته بانتصاره على العثمانيين، إذ وجد في أعينهم الحزن العظيم، كما بلغه الهرج الذي ساد بين الناس أثناء خروجه للقاء العثمانيين[111].

ولم يلبث نابليون أن رحل سراً إلى فرنسا تاركاً قيادة الحملة إلى الجنرال كليبر، وقد فرح الناس بهذا النبأ، وحزن الفرنسيون[112] وأثناء ولاية كليبر تمكّن العثمانيون بمساعدة الإنجليز من تملك قلعة العريش، ولهذا اضطر كليبر إلى الخروج بنفسه لمواجهة الحملة العثمانية، ولكنّه قبيل خروجه كان يخشى استغلال العامة لذلك في التحرك ضد الفرنسيين، ولهذا جمع العلماء وأرباب الديوان والحكام والأعيان، وأوصاهم بالهدوء وعدم إثارة البلابل، وتوعدهم بالدمار إذا عادوا إلى عاداتهم السابقة في إثارة الفتنة استجابةً لدعوات العثمانيين والمماليك[113]، ورغم أن كليبر قد خرج لمحاربة العثمانيين، إلا أنّه كان يميل إلى الصلح، ولذلك فتح باب المفاوضات واستجاب الطرفان للصلح بخروج الفرنسيين من مصر آمنين مقابل عودة مصر ثانية إلى الدولة العثمانية[114].

وعندما شاع النبأ بالاتفاق العثماني الفرنسي بين العامة، عم الفرح العظيم أوساطهم لأن ذلك يعني خروج الفرنسيين، وعودة مصر ثانيةً إلى الدولة العثمانية[115]، ولذلك لما بدأ الوزير العثماني بتسلم المناطق التي أخلاها الجيش الفرنسي سارع الأعيان والعلماء والحكام والتجار وجموع غفيرة من العامة للقاء الوزير العثماني واستقباله أحسن استقبال وقلوبهم تكاد تذوب من الفرح والسرور بتغيير الأحوال وخلاص البلاد[116]، لكن التفاهم بين العثمانيين والفرنسيين قد توقف فجأةً بتدخّل الإنجليز وفرضهم الشروط القاسية على الخروج الفرنسي، ولهذا دعا كليبر العسكر الفرنسي في العودة إلى المناطق التي تم إخلاؤها والمسير لمواجهة الوزير العثماني وجيشه والنجاح في هزيمته[117]، وأثناء غياب كليبر وجيشه عن القاهرة، تمكّن قسم من الجيش العثماني بقيادة ناصيف باشا العظيم والانكشارية من دخول القاهرة من باب النصر، وبدخول القوات العثمانية القاهرة، استبشرت العامة بالعز والنصر بعد الحزن الذي أصابهم، والخوف الذي ساورهم بعودة الفرنسيين إليهم، وقد قامت القوات العثمانية بعد دخولها القاهرة وبمساعدة من العامة في الهجوم على حارة تجار الإفرنج، ونهب الأموال وقتل الرجال وتشكيل عصابات من العامة والهجوم على دور النصارى وحارة الأقباط بحجة تعاونهم مع الفرنسيين، لكن تلك التصرفات أثارت عثمان بك كنخذا الدولة العثمانية، الذي أخذته الشفقة على الرعية والمناداة برفع الأذيّة عن النصارى لأنه لا يجوز في الإسلام الأذية لرعية السلطان، وأمر أجناده بالدوران في الحارات لمنع الخلائق من الاعتداء على حارات الأقباط[118].

كما قامت العامة بمهاجمة حارة اليزبكية مقر ساري عسكر الجيش الفرنسي، ورغم الجموع الفقيرة التي قامت بالهجوم إلا أن الجند الفرنسي، أثبت الشجاعة النادرة في التصدي لهجمات العامة، وبعد ذلك اتجهت العامة إلى الجيزة التي يتواجد بها عدد من الجند الفرنسي، ويظهر أن العامة لم تكتف بالانتقام من الفرنسيين بل الانتقام من المتعاونين معهم، إذ قبض على مصطفى آغا وقدم لناصيف باشا كونه شديد الأذية للمسلمين، فقتل كما قبض على الكثير من الأفراد المتعاونين أمثال خليل البكري نقيب الأشراف الذي شرب الخمر ومارس المنكرات مع الفرنسيين[119]، وكما وقفت العامة في القاهرة مع القوات العثمانية، قامت العامة في دمياط بالتصدي للجنرال بليار الذي جاء لتسلم المدينة ثانيةً، وأمام قوة المدفعية الفرنسية، خرج العلماء والأعيان لطلب الأمان وتسليم المدينة، فاستجاب لطلبهم وتسلم المدينة وكافة الحصون المتينة بها، ومن ثم العودة إلى القاهرة[120] أما في بولاق فقد قامت العامة بمهاجمة الفرنسيين والنصارى

ونهب أموالهم وإقامة المتاريس في الطرقات ولم يلبث كليبر أن عاد من ملاحقة الوزير العثماني، ومن ثم أحاطت قواته بالقاهرة من جميع الجهات وقام بسد المسالك والمدارج، ومنع الدخول والخروج منها ومن ثم طالب الجيش العثماني بالخروج من القاهرة، إلا أنّ ناصيف باشا ومعه العامة رفضوا الطلب الفرنسي، وأصروا على محاربة الفرنسيين وأثناء ذلك تمكن الفرنسيون من الاستيلاء على القلاع والأسوار[121]، وأثناء حصار كليبر للقاهرة، أرسل كليبر الجنرال بليار إلى بولاق، وقد نجح بليار من هزيمة العامة، رغم المتاريس التي أقيمت على الطرقات ورغم الصياح والعويل من النساء والأطفال والكبار مطالبين بالأمان، إلا أن بليار لم يسمع لندائهم ومن ثم قام عسكره بإحراق المنازل وهدمها وقتل الرجال والاعتداء على النساء، وبعد ثلاثة أيام أحرقت المنازل المتينة والبضائع الثمينة لا سيّما وأن بولاق كانت أسكلة القاهرة[122] أي مكان تجمّع البضائع والأموال بالاستقبال والارتحال لقربها من البحر، ولكثرة الأموال التي تجتمع بها وصفت بأنها خزينة مصر، ورغم هذا الدمار الكبير الذي حلّ بالمدينة فإن كليبر أخذ من أهلها أربعة آلاف كيس نقداً[123] وبينما كانت هذه الأحداث تجري في بولاق، كانت العساكر الفرنسية تواصل حصار مدينة القاهرة، بينما كانت القوات العثمانيّة ومعها العامة تواصل التصدي للقوات الفرنسية، رغم شدّة الحصار وقوة النفط والنار الذي كانت تقذف بها القوات الفرنسية، وقد استغلّ الفرنسيون سقوط المطر وقاموا بإشعال النار في القاهرة من جميع الجهات، وقد احترق بتلك النار بيوت لا تُحصى ومات خلق لا يُحصى أيضاً[124] ونتيجةً لشدّة القصف الفرنسي أخرجت القوة العثمانية والعامة من الكثير من الحارات ووقعت تلك الحارات تحت السيطرة الفرنسية، وأمام تلك الحال اتفق السناجق والكشاف والعلماء والأشراف وناصيف باشا على الاستسلام، ولذلك خرج وفد مؤلف من اثنين من المشايخ وهما يرفعان البيرق الأبيض في إشارةٍ إلى الأمان وقد وافق كليبر ومعه وزيره داماس على منح الأمان مقابل خروج العساكر العثمانية من المدينة إلى أرض الشام وتسليم المدينة طواعيةً إلى الفرنسيين[125]، وما أن بدأت القوات العثمانية بالخروج حتى أصاب العامة الحزن الشديد وساورهم الخوف الجسيم حيثُ بدأوا بالنواح والعويل وهم يسبون الأتراك ويشتمونهم باعتبارهم السبب لما حلّ بمدينتهم من دمار وما أصابهم من قتل[126]، وبخروج القوات العثمانية أقام كليبر الاحتفال الكبير بالمناسبة وحضر الاحتفال على مضض الأعيان والعلماء وأرباب الديوان[127] وبعد الاحتفال استقرّت القوات الفرنسية في محلات المدينة وبدأ كليبر بمعاقبة كل الفئات التي شاركت القوات العثمانية في الاستيلاء على مدينة القاهرة إذ استدعى كليبر العلماء والأعيان وقام بتوبيخهم وفرض مليوني ريال عليهم وعلى الأهالي، وقد أصيب الناس بغمّ شديد لضخامة المبلغ الذي فُرض عليهم[128].

وبالانتصار الفرنسي ازدادت شوكة الفرنسيين وأصبحوا لا يبالون بمشاعر العامة بحيث أصبحت القاهرة كباريز في شرب الخمر والمسكرات والأشياء التي لا ترضي رب العالمين[129] ولم يلبث كليبر أن قتل على يد شخص يدعى سليمان الحلبي، وبقتله خشيت العامة الانتقام ولهذا اختفت في منازلها[130]، وبمقتل كليبر أقيم الجنرال منو أميراً للجيوش الفرنسية، وقد قام منو بإجراءات كثيرة أبرزها تأثيراً على العامة تلك الفرائض المالية التي عمت أهل الملل في القاهرة من مسلمين ونصارى ويهود[131]، وأثناء هذه الفترة كانت الدولة العثمانية قد قامت بإرسال حملة عسكرية بقيادة الوزير الأعظم وبتنسيق مع الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض المتوسط وقد تمكنت القوات العثمانية والإنجليز من الاستيلاء على أبي قير في الساحل ومن ثم الزحف باتجاه مدينة القاهرة، وقد قام الجنرال منو بتكليف الجنرال بليار الدفاع عن القاهرة في حين قاد قسم من القوات باتجاه رشيد والإسكندرية، مع القيام بسحب القوات الفرنسية من الأقاليم وحشدها في القاهرة، والرحمانية ورشيد والإسكندرية[132] وكانت نتيجة الحرب انهزام القوات الفرنسية أمام العثمانيين والإنجليز، وقد كان موقف العامة تأييد القوات العثمانية والإنجليزية، وتشير الرواية أن الوزير العثماني فتح باب

المفاوضات مع الفرنسيين، وذلك خوفاً على القاهرة من الحرق، وقد أسفرت المفاوضات على موافقة بليار تسليم القاهرة، وإعادة مصر إلى الدولة العثمانية مع الانسحاب الآمن للقوات الفرنسية من مصر[133]، وبموجب الاتفاق بدأت القوات الفرنسية بتخلية مدينة القاهرة والمدن المصرية الأخرى، باستثناء مدينة الإسكندرية إذ رفض منو الاتفاق الفرنسي العثماني وأصرّ على المقاومة إلا أنه أجبر أمام الحصار العثماني والإنجليزي على التسليم والخروج مع القوات الفرنسية من مصر[134] وبتسلم القوات العثمانية المدن المصرية عمّ العامة الفرح العظيم، وخرج العلماء والأعيان والعامة لاستقبال الوزير الأعظم والقوات التي ترافقه، وازداد فرح العامة باستسلام منو في الإسكندرية إذ أقيم احتفال عظيم ضربت به المدافع احتفالاً بالمناسبة وخروج الفرنسيين وعودة الديار المصرية للدولة العلية[135].

الخاتمة:

1) إن العامة قد استجابت بحماس شديد في التصدي للفرنسيين سواء في الإسكندرية أو القاهرة، لكن المقاومة كانت عبثية أمام قوة الجند الفرنسي وقوة نيرانه، مقارنةً بالعامة التي لا عهد لها بالقتال أو قذائف المدفعية.

2) أن فئة العلماء والأئمة والأعيان، خلال هذه الفترة، كانت الفئة التي أخذت على عاتقها حماية المجتمع من الغزاة، وذلك بالتدخل المتواصل لدى السلطات الفرنسية بوقف القتال ومنح الأمان.

3) أن فئة العلماء والأئمة والأعيان التي شكلت الفئة القيادية للمجتمع، كانت قد تعاونت مع السلطات الفرنسية، لكن هذا التعاون كان على مضض منها، إذ كانت تُكِنُّ الكراهية والعداء للفرنسيين وتعبر عن هذه الكراهية في أية فرصة تتاح لها، وقد ظهر ذلك جلياً في ثورة القاهرة الأولى، إذ كانت هذه الفئة هي المحرك للعامة في التحرك ضد الفرنسيين.

4) أن العامة في الأقاليم المصرية كانت أكثر إصراراً على مقاومة الفرنسيين، بحيث أن تلك الأقاليم لم تخض للسلطة الفرنسية، إلا بعد معارك متواصلة أُنهكت فيها العامة كما أُنهكت بها القوات الفرنسية.

5) أن ثورة العامة في القاهرة كانت أولى الثورات التي عبرت بها العامة عن سخطها تجاه السياسات التي مارستها السلطة الفرنسية، كما جعل السلطة الفرنسية دائماً تأخذ في الاعتبار رد فعل العامة على أيَّة سياسات ترسمها في الفترة اللاحقة.

6) رغم الهدوء الذي عمّ الأقاليم المصرية بعد سيطرة السلطة الفرنسية عليها، إلا أن تلك الأقاليم كانت تتحين الفرص للخروج ثانيةً، وقد أتت إليها تلك الفرص بخروج نابليون لغزو بلاد الشام وعودته ثانيةً إلى مصر مهزوماً.

7) أن العامة رغم ما كانت تعانيه من ظلم في ظل الحكم العثماني، إلا أنّها بقيت تعتبره الحكم الشرعي الواجب عودته لحكم مصر، وأن الحكم الفرنسي بقي مكروهاً لديهم رغم المنافع التي جلبها للديار المصرية.

8) أن العامة قد عمها الفرح الغامر بالاتفاق العثماني الفرنسي، لأن هذا الاتفاق تضمن خروج الفرنسيين، وعودة مصر ثانيةً للدولة العلية.

الهوامش والتعليقات الختاميّة:

(1) الترك، نقولا، ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، أو الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام، تحقيق ياسين سويد، دار الفارابي، بيروت، (1990)، مقدمة المحقق، ص(5).

(2) الترك، نقولا، حملة بونابرت إلى الشرق، دراسة وتحقيق أمل بشور، جروس برس، طرابلس، (1993)، مقدمة المحقق، ص(10).

(3) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، مقدمة المحقق، ص(6).

(4) الترك، المصدر نفسه، مقدمة المحقق، ص(6–7)، الترك، حملة بونابرت إلى الشرق، ص(10–11).

(5) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، مقدمة المحقق، ص(7)، الترك، حملة نابليون بونابرت، مقدمة المحقق، ص(11).

(6) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، مقدمة المحقق، ص (7–8).

(7) الترك، المصدر نفسه، مقدمة المحقق، ص(8–10).

(8) الترك، المصدر نفسه، مقدمة من المحقق، ص(10).

(9) موارية، جوزيف ماري، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (2000)، ص(19).

(10) موارية، المرجع نفسه، ص(19–20).

(11) سالم، سيّد مصطفى، نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، ط2، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، (1989)، ص(88).

(12) موارية، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية، ص(24).

(13) برتيية، ل، رواية الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام، نقله إلى العربية وقدم له هلا سليمان، ومارون عيسى الخوري، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، (1995)، ص(5).

(14) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(27–28).

(15) الترك، المصدر نفسه، ص(28).

(16) الدارندلي، عزت حسن أفندي، الحملة الفرنسية على مصر، دراسة وتحقيق جمال سعيد عبد الغني، النهضة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (1999)، ص(132).

(17) برتييه، رواية الحملة الفرنسية، ص(16).

(18) مواريه، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية، ص(30)، الدارندلي، الحملة الفرنسية، ص(134).

(19) برتييه، رواي، رواية الحملة الفرنسية، ص(19).

(20) الدارندلي، الحملة الفرنسية على مصر، ص(134–135)

(21) برتييه، رواية الحملة الفرنسية، ص(19).

(22) برتييه، المرجع نفسه، ص(20).

(23) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(30).

(24) الترك، المصدر نفسه، ص(31).

(25) برتييه، رواية الحملة الفرنسية، ص(26)، موارية، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية، ص(40).

(26) برتييه، رواية الحملة الفرنسية، ص(31)، مواربة، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية، ص(44–45).
(27) برتييه، رواية الحملة الفرنسية، ص(31).
(28) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(32).
(29) الترك، المصدر نفسه، ص(33).
(30) الترك، المصدر نفسه، ص(34).
(31) الدارندلي، الحملة الفرنسية على مصر، ص(149).
(32) برتييه، رواية الحملة الفرنسية، ص(34).
(33) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(35).
(34) الترك، المصدر نفسه، ص(35).
(35) الدارندلي، الحملة الفرنسية على مصر، ص(149).
(36) الدارندلي، المصدر نفسه، ص(149).
(37) الدارندلي، المصدر نفسه، ص(149).
(38) الدارندلي، المصدر نفسه، ص(154).
(39) الدارندلي، المصدر نفسه، ص(156).
(40) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(36)، شكري، فؤاد، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ن، ص(549).
(41) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(36).
(42) الترك، المصدر نفسه، ص(37).
(43) الدارنلي، الحملة الفرنسية على مصر، ص(159–160) شكري، الحملة الفرنسية، ص(550).
(44) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(36–37).
(45) الترك، المصدر نفسه، ص(38).
(46) الترك، المصدر نفسه، ص(39).
(47) الترك، المصدر نفسه، ص(39).
(48) الترك، المصدر نفسه، ص(39).
(49) الترك، المصدر نفسه، ص(45–46).
(50) الترك، المصدر نفسه، ص(46).
(51) الترك، المصدر نفسه، ص(47).
(52) الترك، المصدر نفسه، ص(52).
(53) الترك، المصدر نفسه، ص(52).
(54) الترك، المصدر نفسه، ص(53).
(55) الترك، المصدر نفسه، ص(53).
(56) الترك، المصدر نفسه، ص(53–54).
(57) الترك، المصدر نفسه، ص(54–55).

(58) الترك، المصدر نفسه، ص(55).
(59) الترك، المصدر نفسه، ص(55).
(60) الترك، المصدر نفسه، ص(55).
(61) الترك، المصدر نفسه، ص(55-56).
(62) الترك، المصدر نفسه، ص(57).
(63) الترك، المصدر نفسه، ص(58).
(64) الترك، المصدر نفسه، ص(58).
(65) الترك، المصدر نفسه، ص(59).
(66) الترك، المصدر نفسه، ص(59).
(67) الدارندلي، الحملة الفرنسية على مصر، ص(172).
(68) الدارندلي، المصدر نفسه، ص(172).
(69) الدارندلي، المصدر نفسه، ص(173).
(70) الدارندلي، المصدر نفسه، ص(173).
(71) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(59)، شكري، الحملة الفرنسية، ص(598).
(72) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(59).
(73) الترك، المصدر نفسه، ص(60)، الدارندلي، الحملة الفرنسية على مصر، ص(173).
(74) الدارندلي، المصدر نفسه، ص(173).
(75) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(60).
(76) الترك، المصدر نفسه، ص(60) الدارندلي، الحملة الفرنسية على مصر، ص(173).
(77) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(60).
(78) الترك، المصدر نفسه، ص(60).
(79) الترك، المصدر نفسه، ص(60).
(80) الترك، المصدر نفسه، ص(60-61).
(81) الترك، المصدر نفسه، ص(63).
(82) الترك، المصدر نفسه، ص(64).
(83) الترك، المصدر نفسه، ص(66).
(84) موارية، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية، ص(77).
(85) برتيية، رواية الحملة الفرنسية، ص(101-102).
(86) موارية، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية' ص(102).
(87) موارية، المرجع نفسه، ص(103).
(88) موارية، المرجع نفسه، ص(103).
(89) موارية، المرجع نفسه، ص(104).
(90) برتييه، رواية الحملة الفرنسية، ص(102).

(91) برتييه، المرجع نفسه، ص(103).
(92) برتييه، المرجع نفسه، ص(105).
(93) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(87).
(94) الترك، المصدر نفسه، ص(84).
(95) برتييه، رواية الحملة الفرنسية، ص(123).
(96) برتييه، المرجع نفسه، ص(124).
(97) برتييه، المرجع نفسه، ص(127–128).
(98) برتييه، المرجع نفسه، ص(129).
(99) برتييه، المرجع نفسه، ص(129–130).
(100) برتييه، المرجع نفسه، ص(130–136).
(101) برتييه، المرجع نفسه، ص(144).
(102) برتييه، المرجع نفسه، ص(147).
(103) برتييه، المرجع نفسه، ص(150).
(104) برتييه، المرجع نفسه، ص(156).
(105) برتييه، المرجع نفسه، ص(159).
(106) برتييه، المرجع نفسه، ص(159).
(107) برتييه، المرجع نفسه، ص(159).
(108) برتييه، المرجع نفسه، ص(159).
(109) الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص(89).
(110) الترك، المصدر نفسه، ص(94).
(111) الترك، المصدر نفسه، ص(94).
(112) الترك، المصدر نفسه، ص(97).
(113) الترك، المصدر نفسه، ص(104).
(114) الترك، المصدر نفسه، ص(114).
(115) الترك، المصدر نفسه، ص(114).
(116) الترك، المصدر نفسه، ص(115).
(117) الترك، المصدر نفسه، ص(121).
(118) الترك، المصدر نفسه، ص(125–126).
(119) الترك، المصدر نفسه، ص(126–127).
(120) الترك، المصدر نفسه، ص(124).
(121) الترك، المصدر نفسه، ص(127).
(122) الترك، المصدر نفسه، ص(127–128).
(123) الترك، المصدر نفسه، ص(129).

(124) الترك، المصدر نفسه، ص(129).
(125) الترك، المصدر نفسه، ص(129–130).
(126) الترك، المصدر نفسه، ص(130).
(127) الترك، المصدر نفسه، ص(131).
(128) الترك، المصدر نفسه، ص(132).
(129) الترك، المصدر نفسه، ص(132).
(130) الترك، المصدر نفسه، ص(138).
(131) الترك، المصدر نفسه، ص(139–141).
(132) الترك، المصدر نفسه، ص(146–148–149).
(133) الترك، المصدر نفسه، ص(153).
(134) الترك، المصدر نفسه، ص(163).
(135) الترك، المصدر نفسه، ص(166).

المصادر والمراجع:

المصادر:

1) الترك، نقولا، ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، حققه وقدم له ووضع حواشيه ياسين سويد، دار الفارابي، بيروت، (1990).

2) الدارندلي، عزت حسن أفندي، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني ضيانامه، دراسة وترجمة جمال سعيد عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (1999).

المراجع:

1) برتييه، ل، رواية الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام، نقله إلى العربية هلا سليمان ومارون عيسى الخوري، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس–لبنان، (1999).

2) بشور، أمل، حملة نابليون إلى الشرق، دراسة وتحقيق، جروس برس، طرابلس–لبنان، (1999).

3) جمال الدين، باستي "وآخرون"، مختارات من وثائق الحملة الفرنسية (1798–1801)، مراجعة وإشراف مديحة دوس، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، (2006).

4) سالم، سيّد مصطفى، نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، نشر وتحقيق سيّد مصطفى سالم، ط2، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، (1989).

5) شكري، فؤاد، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

6) مواريه، جوزيف ماري، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة وتقديم كاميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، (2000).